ابراهيم باشـــــا..!!

معلم المدرسة

بقلم الاستاذ نقولا شكرى

لما أراد (ديكنز) سيد الروائيين الانجليز أن يخرج للناس آية الاعجاز فى فن القصص ، اختار أن يؤلف من ذكريات صباه تلك اليتيمة التى أسماها « دافيد كوبرفيلد » ، وزاد على الاعجاز فى هذه الآية الفنية التى خلدته، أنه علم الناس كيف تكون عاقبة القسوة إذا تجاوزت فى التربية .

وكان بعث هذه الحقبة من حياته كلمة كبرى أصدرها إلى الأخلاف فى الحكم على طرائق التربية القديمة .

والواقع لو أن الانسان صالح بفطرته، لكان ـ حسب هذا الصلاح ـ يعد رأس حكمته ؛ ولكن منذ أن وجد رب الأسرة ، وكان راعياً يتوكأ على عصا طويلة ، كان المربى ـ وهو معلم المدرسة ـ يحمل هراوة يهدد بها تلاميذه ؛ ولما استعان القرن الثامن عشر بطرائق التربية القديمة وضع أساس حضارة جديدة ، وكانت قاعدة تلك التربية : المثل ، والقدوة .

أما الخط الذى حفرته الحضارة في الأذهان ، فهو أن الانسان قد ولد حراً ، وإذا كانت الحرية تكفل الاصلاح ، فلسنا إذاً فى حاجة إلى القصاص .

***

رسالتى إلى القراء تتلخص فى صورة حية تحفظها ذاكرتى منذ عهد الطفولة ، مذ كنت طفلا ارتع بين ربوع أنطاكية وكرومها ، وسيظل هذا الموطن حيا فى نفسى بذكريات الصبا المؤثرة .

صورة معلم المدرسة التى تلقيت فيها مبادىء المعرفة .

كان مثلا لرجال العهد القديم الذين نميزهم لأول وهلة باختلافهم عن سائر الناس فى الزى والنفس، ونعرفهم عادة سواء أكانوا فى الشارع أو فى المجالس بلباسهم العتيق والطراز المشوش

الذى نشأوا عليه وألفوه ، لا يكاد يصافحهم النظر حتى يحسب الانسان أنه يتلمس من ادرانهم أهداب العصر البائد .

كان «إبراهيم باشا» ـ وهذا اسمه ـ رجلا قد بلغ حدود الستين، أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، شاب بدا على وجهه الاصفرار ، واستحوذت على ملامحه خشونة العصر السالف وصرامته، غليظ الشفتين ؛ وغلظ الشفتين صفة ينسبها الأخباريون السالفون إلى التبحر فى اللغة والبيان .

وما كان صاحبنا من البيانيين ، ولكنا عرفناه ملماً بالعربية والتركية ، وكان خطاطاً لطيف الصنعة ؛ وإجادة الخط كانت ـ لذلك العهد ـ ميزة شائقة، تكافىء عليها الحكومة وتعهد إلى أربابها بالوظائف ، من أجل ذلك صار « ابراهيم باشا » رئيس مدرسة أولية فى أنطاكية .

وأقوى ما تتصف به أنطاكية أنها محافظة شديدة التمسك بصبغتها القومية .

والمعلم «ابراهيم باشا» إلى قصر قامته ـ الذى يستدل به (بسيكولوجياً) على رباطة الجأش والهدوء ، وغلظ شفتيه اللتين تنمان عادة عن طيب القلب ـ عصبى المزاج ؛ وقد يستغرب المزاج العصبى ، إذ ما بدا من شيخ حطم الستين من عمره ، وتهدلت أهداب عجزه وكبره ، وكان أولى بالصبر والسكينة ، ولكنه كان مع ذلك سريع الاحتياج إلى قوة صوته وامتداده حتى ليحسبه الانسان من صنف المغنين الأوربيين المعروفين بنغمة (السبرانو) لا تصدر عنه صيحة فى قاعة الدرس حتى يتردد صداها فى الطريق كأن الرجل قد تعود أن يمرن صوته على الصيحات ، كما يتفق لرجال العسكرية .

هذه صورته الطبيعية ؛ أما هيئته فقد كان « ابراهيم باشا » يرتدى بذلة عتيقة سوداء كأنها آخر أثر احتفظ به موظف من رجال العهد السالف، ولقد يدعى التأنق أحيانا فيضيف إلى مجموعة ذلك الثوب العتيق صديرياً ملوناً من نوع (الفانتيزى) فيستحوذ لون الصديرى العجيب على سائر أجزاء البذلة حتى يضاهى صديرى الأب (غوتييه) المشهور، الذى كان آية استغراب أهل عصره من (الرومانتيك) .

ولم يكن « ابراهيم باشا » مع ذلك صاحب مذهب فى التجديد ، أو خلق شاذ مستغرب حتى يتهم بتعمد الشذوذ فى هيئته ، إنما كان معلم المدرسة يعتقد أن ذلك الصديرى الملون الذى يطفح به صدره يزيد فى مهابته ويضيف إلى مقامه ـ فى نظر التلاميذ وأولياء أمورهم ـ شيئا كثيراً من صبغة الرجال الرسميين .

وإلى تلك البذلة العتيقة وذلك الصديرى الفانتيزى كان « ابراهيم باشا » يعنى بنوع قديم من رباط الرقبة لا يدقق مطلقاً فى تهذيب وضعه ولا إصلاحه ، كان يجعله دائماً مائلا

إلى اليسار أو إلى اليمين حسبما يتفق ، وكان هذا الهندام المشوش لوناً خاصاً يعرف به معلم المدرسة فى المدينة ، وهو وإن لم يكن من الرجال الرسميين إلا أنه اكتسب هذه الصفة عند أهل المدينة بالنظر إلى احترام رجال العلم فى ذلك العهد الذى سادت فيه الفوضى والجهالة .

قلنا إن « إبراهيم باشا » كان خطاطا بارعا ، والاعتقاد السائد فى الشرق أن الخط من مفاتيح الرزق وأن « من علمنى حرفا كنت له عبداً » ، كذلك كان معلم المدرسة محترماً مبجلا فى كل مكان .

وكان المعلم « إبراهيم باشا » مرتلا فى الكنيسة ؛ وإن قداسة هذه الوظيفة لتكفى للاعلان عن صوته من جهة ، ومن جهة أخرى تدل على أن اتصال التعليم بالكنيسة لا يكون أحيانا بلا فائدة !

ونحن إذا شئنا أن نصور « إبراهيم باشا » فى قاعة الدراسة ، فانا نحتاج إلى مثل بلاغة (ديكنز) لكى تقرب إلى الأذهان حالة هذا المربى الذى كان لا يشرف على جمهور تلاميذه إلا قابضاً على عصا طويلة يبلغ بها آخر الصبية ، ويستمع فى وقت واحد لمن هو أمامه ، ويراقب بحفظ من هو عن يمينه ، ويلكم من كان على يساره ، فلا تغيب عنه حركة تصدر عن صبى ، ولا يدع هذه الحركة دون قصاص ، وكان كمعلم المدرسة الذى وصفه (أوجين سو) الروائى الفرنسى فى قصة « أسرار باريس » ، بصرف النظر عن الفارق العظيم الذى يرفع « إبراهيم باشا » إلى طبقة المعلمين الذين ينشرون المعرفة مقدار ما يهبط إلى الحضيض بطبقة المعلمين الذين يبتون طرائق الاحتيال والإجرام ، فقد كان معلم المدرسة الذى اختلق صورته الروائى الفرنسى الوحشى الطبع مثل (أوجين سو) يبث الرذيلة ، ويعلم طائفة من المتشردين كيف يكون الاحتيال والسرقة ؛ على أن « إبراهيم باشا » وإن لم يبلغ فى مستوى الانحطاط هذا الحد الذى اختلقه الروائى الفرنسى ، فقد كان ينتعل حذاءً من جلد آدمى مجفف ، غير أنه كان بطبيعته ميالا إلى الجشع ، يفرض على تلاميذه ما لا يجوز فرضه من أساليب الربح ولطف الاحتيال على الرزق .

كان لا يقنع بما يؤديه إليه آباء التلاميذ من الهدايا ، وما يحبونه به من الهبات ابتغاء أن يعنى بتربية أولادهم . كان إذا جاء الشتاء فرض على كل صبى ألا يأتى إلى المدرسة دون أن يكون متأبطاً لحزمة كبيرة من الوقود ، فلا يزال الصبية كل صباح يكدسون هذه الحزم أمام باب المدرسة ، حتى إذا لوحظ أن أحدهم خاليا منها صاح به معلم المدرسة الشيخ بلا رحمة وأرجعه إلى داره حتى لا يعود إلا متأبطاً حزمة الوقود ! وكلما اجتمعت هذه الأكداس أمر أن تحمل إلى داره ويبقى مطمئناً راضياً ، كأن الدفء إذا حل داره اشترك فيه أولئك الصبية الصغار .

وكان المعلم « ابراهيم باشا » لا يعتمد فى معرفة الوقت على الساعات ، إنما كان يهتدى بظل الشمس ، ومن أجل ذلك كان عتيقاً فى طباعه ، وفى لباسه ، وفى ذهنه .

وقديماً جعل التاريخ معلمى الصبيان موضوع سخرية ؛ ولقد تميز معلم المدرسة بنقص خاص فى طبعه أو هندامه لا يكون فى أحد سواه ، وقد ظل هذا النقص كأنه عنوان تأبى الطبيعة إلا أن تهزأ به منهم وتسخر بهم !

كان « إبراهيم باشا » فى بعض الأيام يظل بلا غداء إلى الظهيرة ، فإذا ما انتشر الصبية فى فسحة المدرسة أثناء الفراغ ، واجتمعوا لتناول الطعام وقف ببذلته السوداء وصديريه الملون ، حاملا قطعة كبيرة من الخبز بلا أدم،ويظل يراقب بنظره ما يحمله الصبية من صنوف الطعام ، فلا يحجم عن أن يطلب من كل صبى قطعة من الجبن أو بعضاً من الفاكهة ، ويرى أن غداءه على حساب تلاميذه فرض كالحق المكتسب ، وكان كالعملاق الذى ذكرت الأساطير أنه كان يستخرج بيده السمكة حية من البحر ويشويها فى الشمس ثم يلتهمها .

قلنا : إنه كان لطيف الحيلة فى الحصول على الربح ، ونروى على سبيل المثال قصة اتفق حدوثها لمصلحة معلم المدرسة الشيخ؛فقد حاول بعض الصبية أن يطعن رفيقه بمدية صغيرة ، فهال « إبراهيم باشا » هذا الحادث ، وأمر الصبية ألا يستعملوا المدى مطلقاً ، ولكنه شاء أن يجعل الحادث نفسه وسيلة لاستغلال الطلبة ـ كشأنه فى سائر المسائل ـ ففرض على كل صبى أن يدفع مبلغاً معيناً يمكن أن يتحصل من مجموعه على ثمن مدية تودع فى المدرسة لكى يستعملها الصبية ، وحتى لا تتاح لأحد منهم أية محاولة للأذى ، وما زال يجمع فى ثمن هذه المدية أسابيع طويلة ، دون أن يرى الطلبة ـ مع ذلك ـ أثراً لها ، وتارة يدعى أنها سرقت، وطوراً يؤكد أن فى نيته شراءها متى اجتمع لديه ثمنها ، ولقد حصل على ذلك الثمن مرة وأخرى ؛ وهو باق على استمساكه فى استعمال الحيلة لابتزاز نقود التلاميذ .

وليت طبيعة معلم المدرسة الشيخ قد انتهت عند هذا الحد ، فانه كان لا يترك فرصة دون أن يفرض على بعض الصبية ـ لأسباب واهية ـ عقوبات من نوع تسويد الخطوط على ورق ثقيل ، كان كلما تراكم لديه من ٤٠٠ أو ٦٠٠ قرطاس حمله إلى السوق لكى يبيعه إلى التجار ؛ وربما أخلى الصبى من عقوبة ثقيلة ، (كالفلق) مثلا ، وهو لا يرى من ورائها شيئا لكى يفرض عليه كتابة مسودات ، فكان الطلبة يؤدون هذه الواجبات مرغمين .

وكانت مدرسة « إبراهيم باشا » مع ذلك مشهورة بحسن السمعة ورقى التعليم ، وفى الحقيقة أن هيئة الرجل كانت تحمل ناظريه فى الظاهر على الاحترام .

ومن نوادره أن التلميذ كلما استطاع أن يكمل كتابا تعين عليه أن يؤدى إلى معلم المدرسة

هدية فاخرة مع المرتب ، وكان ذلك فرضاً محتماً ، نضرب لذلك مثلا كتاب (الأفتيخوس) الذى كان من أجل التآليف الدينية لدى معلم المدرسة ، فقد كنا لا نبلغ ختامه حتى نطالب بأداء مكافأة عظيمة كان ينبغى أن تؤدى إلينا لكى تحفظنا على الحفظ ، إنما «إبراهيم باشا» يرى المكافأة من حقه لا من حق التلميذ ، ولا يستثنى ـ من القصاص بالقلق وبالعصا أو أداء المسودات ـ سوى التلاميذ الذين يحبرنه بالهدايا وأنواع الحلوى و (البقشيش) ، هذا إلى أن تعليمه لم يكن يتجاوز حفظ مختارات من ديوان ابن الفارض ومجانى الأدب ومجمع البحرين !!

لا ننكر أن «إبراهيم باشا» كان معلماً منزها عن لؤم المعلم الذى وصفه (شارلز ديكنز) فى روايته (دافيد كوبر فيلد) ، وبعيداً كل البعد ـ أيضا ـ عن خبث المعلمين فى العصر الحديث ، غير أن هذه الصفات التى لا نزال نذكرها له جعلت منه صورة صادقة لذلك الصنف من المعلمين الذين ذكرهم الجاحظ ، وكانوا موضوع سخرية عصرهم ، وستظل صورة « إبراهيم باشا » بالبذلة السوداء العتيقة والصديرى للون ، وربطة الرقبة المنحرفة الطويلة ، رمزاً لعهد كانت فيه فريضة احترام المعلم إزاء الجهل السائد ، أشبه بغلالة كثيفة تختفى من ورائها أقبح العيوب ، ولكن من كان يستطيع أن يرفع بيده تلك الغلالة لكى يكتشف نقائص « إبراهيم باشا » ؟

أما أن ينكر الشرق تعليمه الراسخ بعبوديته لمن علمه ، فهذا لعمرى كفران لم يكن فى طاقة الصبية ، فكيف يمكن أن يكون فى طاقة الكبار ؟

من أجل ذلك بقى « إبراهيم باشا » معلم مدرسة ، ومرتلا فى الكنيسة ، وخطاطاً ، وصاحب سيادة واسعة ، كبعض المعلمين القدماء الذين كان يدين لهم تلاميذهم بالحياة .

نقولا شكرى

أيها المشـــــترك !!

إن « المعرفة » تفخر كل الفخر ، بأنها مجلة المثقفين والعظماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء فى جميع أنحاء الشرق العربى .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما نبذل فى سبيل « المعرفة » من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .